الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

إشكالية التوفيق بين الفلسفة والدين عند القديس توما الأكويني

The Problem of Reconciling Philosophy and Religion for Saint Thomas Aquinas

د. شفيعة بليلى
أستاذ محاضرة قسم "أ"
تخصص فلسفة وسيطية (مسيحية وإسلامية)، بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة- الجزائر-
b-chafiaa@hotmail.fr

ملخص

يرى الأكويني أن الفلسفة والدين منفصلان، ولكنهما لا يتناقضان. منفصلان لأن مصدراهما مختلفان، الفلسفة مصدرها العقل، والدين مصدره الوحي، والثاني أشرف من الأولى، لذلك يستعمل الفلسفة وغيرها من العلوم، ولا يستمد مبادئه من أي علم. وهما غير متناقضان لأن النظر في الفلسفة كلها يكاد أن يكون جميعه موجها إلى معرفة الإله.

من هنا كان بين الفلسفة والدين مجالا مشتركا هو اللاهوت الطبيعي، ولا يمكن للفلسفة أن تضاد الدين لأنها تعتمد على مبادئ العقل التي هي مبادئ فطرية بديهية وبالتالي صادقة. واللاهوت صادق بحد ذاته لأن وحي الله غير مكذوب. وإذا وجد بينهما تضاد، فما على الإنسان إلاّ أن يفتش عن الخطأ في الفلسفة. وعلى الرغم من الدور الذي أعطاه الأكويني للعقل في اللاّهوت إلاّ أنه يرى أن للعقل حدود، لأنه قاصر ولا يمكن أن يتخطى إلى حقائق تفوق طبيعة البشر مثل ماهية الإله. ولكن ما لا يمكن إدراكه بالعقل ليس معناه أنه ليس حقا.

ومن هنا فالأكويني لا يأخذ برأي أرسطو، ولا بنتائج البحث العقلي في ميادين قد فصل فيها اللاّهوت المسيحي مثل خلق العالم، ولا يجرؤ حتى على استعمال الإثبات العقلي في قضايا غير واضحة مثل التثليث. فتقدم الأكويني بفضل معطيات العقل هو تقدم محدد مسبقا من طرف العقيدة. بدليل أنه كثيرا ما أوّل أرسطو تأويلا يتماشى واللاهوت المسيحي حتى وإن كان ذلك تأويلا فاسدا.

الكلمات الدالة : التوفيق، الفلسفة، الدين، تناقض، العقل.

Abstract

Aquinas believes that philosophy and religion are separated. Their sources are different from each other. Philosophy's source is mind and religion's source is revelation and the second is more noble than the first that's why it uses philosophy and other sciences and it doesn't derive its principles from any science. Despite this difference, they are not contradictory, because seeing the whole philosophy could be almost guided to knowing God. And from here that was a common field between philosophy and religion which was the natural theology. The philosophy can't contrast religion because it depends on mind's principles which are innate and evident and, therefore it is true. The theology is true itself because God's revelation is not a lie. Despite the role that Aquinas gave to mind in theology, but he believes that mind has limits, because it's incapable and it can't exceed the facts beyond the human nature like" what God is." But, what we can't recognize with mind doesn't mean it's not true .So, if there is a contradiction between them, man should look for the error in philosophy.

From here Aquinas does not take the opinion of Aristotle, nor the results of mental research in fields up on which the Christian theology has decided , such as the creation of the world, not even dare to use mental proof in unclear issues such as triangulation. The advance of Aquinas thanks to mind's data, is an advance predetermined by the religion. The proof of this, he often interpreted Aristotle in a way that is compatible with Christian theology, even if this interpretation is wrong.

Keywords: *Reconcile, Philosophy, Religion, Contradiction, Mind.*

مقدمة

لقد كان القرن الثالث عشر للميلاد، وهو القرن الذى عاش فيه القديس توما الأكويني (أواخر 1224 أو بداية 1225 –ت 1274)، عصر مواجهة بين ما طبعته الكنيسة في المجتمع الغربي المسيحي من تصوّر للمعرفة التي انحصرت في مجموعة من الحلول المسبقة لمجموعة بعينها من المشاكل، وبين الزحف الكبير للتراث الإسلامي من علم وفلسفة بما في هذه الأخيرة من فلسفة يونانية مترجمة ومشروحة من طرف المسلمين.

ومن أهم ما وصل من الفلسفة إلى المجتمع المسيحي ،،فلسفة أرسطو المصبوغة بالإلحاد في نظر الكنيسة، لأن مذهب أرسطو في نظرها لم يكن يساير تعاليم المسيحية، إذ لا يمكن لأي مسيحي قبوله على إطلاقه لسببين جوهريين: أولهما إغفاله لمشكلة أصل الوجود بقوله إن المادة قديمة، وأن الإله ما هو إلا محرّك أول لا يتحرك، وثانيهما اختلاف مفهوم الألوهية عن المفهوم المسيحي لأن الإله خالق وفق إرادة حرة.

وجاء رد فعل الكنيسة ضد أرسطو ،على شكل قرار تحريم أثناء انعقاد مجمع باريس عام 1210 يقضي بتحريم قراءة كتب أرسطو وشروحها. غير أن هذا التحريم كان ينطبق على جامعة باريس فقط ،إذ استمر تدريس أرسطو وشروحه على الرغم من هذا التحريم، واضطرت الكنيسة إلى إصدار تحريم آخر عام 1215 الذي كان أكثر عنفا من سابقه.(1)

وعلينا أن نرى في هذين التحريمين تصميم الكنيسة على سد الطريق أمام أرسطو العربي، أي أرسطو وشرّاحه العرب. وبعد هذا التحريم هل استجاب الأساتذة والطلاب له ؟

كلا! لأن التغير الذي هو سمة الحياة كان يعمل عمله في حياة المجتمع الغربي المسيحي، ولا يمكن لأحد أن يوقف هذا التغير،ولقد أصبحت ثمة حاجة ملحّة لإيجاد بنية فكرية جديدة تصوغ تلك التغيرات وتعبر عنها. كما كان من الصعب، جعل العقول التي أثير شغفها، تقبل مقص الرقابة على الفكر المطروح أمامها. خاصة بعد دخول شروح ابن رشد باريس سنة 1230، ولذلك نرى البابا أينوسنت الرابع Innocent IV يفرض حظر قراءة كتب أرسطو في 1235. ولكن ابن رشد قد فرض سلطة شروحه على العقول، والفلسفة الإسلامية قد تسللت إلى المجتمع الغربي المسيحي على الرغم من التحريمات العديدة التي ستتوالى. وهكذا بدأت الكنيسة تخضع للأمر الواقع بعد أن أدركت أن أرسطو قد اقتحم الميدان ،وأنه لا فائدة من محاولة صدّ هذا التيار. وأن الشيء الوحيد الذي يمكن فعله ،هو أن ينقى أرسطو من أفكاره الوثنية ليتكيف مع العقلية المسيحية.

وهكذا صدر قرار في 19 مارس 1255 يفرض دراسة وشرح كل المؤلفات الأرسطية المعروفة وقتذاك في كلية الآداب بالجامعات المختلفة في كل أوروبا (2). ويغدو أرسطو هو الفيلسوف المعتمد المرضي عنه بعد أن كانت مؤلفاته محرّمة.

هذا ولم يتوقف الخطر عند هذا الحد ، وإنما زاد وتصاعد مع تيار الرشدية . لقد بات التناقض صريحا و واضحا بين الرشدية والعقيدة المسيحية ،كما بات واضحا خطرها الذى يهدد نقاء المسيحية ، ولا بد من تعبئة كل الجهود لإنقاذ هذا النقاء وأصبحت المشكلة هي إنقاذ أرسطو من شارحه. فاسغاثت الكنيسة سنة 1267 بألبرت الكبير* ليتصدى لهذا التيار الجارف(3).

لقد قام حول" الرشدية " بين اللاتين، خصام أعنف من الخصام الذي قام على ابن رشد بين المسلمين، فالرشدية اللاتينية، وإن رافقها شيء كثير من التحفظ والتكتم، كانت أشد خطرا على المؤمنين النصارى من تعاليم ابن رشد على المؤمنين المسلمين. ذلك أن الذين يدّعون أنهم من أتباع ابن رشد، قلّما يتحلون بأصالة آراء وأفكار ابن رشد. وكثيرا ما يغالون في اتهامه وينسبون إليه ضلالات هو بريئ منها. وهذه الآراء والضلالات أثرت بالسلب على البيئة اللاتينية التي كانت ما تزال بكرا ،في حين أن البيئة العربية كانت قد قطعت شوطا كبيرا ومهمّا فى ميدان الجدل،خاصة مع الفرق الإسلامية، وأن هذه البيئة اللاتينية النصرانية كانت شديدة الحذر من الآراء الفلسفية، حتى تلك التي لا يرى الإسلام فيها غضاضة عليه(4).

ضرورة التوفيق

لما استغاثت الكنيسة بألبير الكبير كما أشرنا سابقا، اعتذر ووجه الانتباه إلى توما الأكويني، وأوفد توما إلى باريس. ولاشك أن الأكويني وقع في حيرة كبيرة من أمره ،فهو قد أوفد لمحاربة الرشدية ومحاربة أرسطو، وهو كثير الإعجاب بأرسطو، فإن هو تمسك بأرسطو حسب من الرشديين الذين أتى لمناهضتهم. من هنا دقة الموقف.

لقد فرض على الأكويني أن يناضل على جبهتين:

الأولى:أن يدافع عن أرسطو، ضد خصومه وهم أتباع أغوسطينوس Augustin وحلفاء ابن سينا ،والواقفون بين النصارى موقف المتكلمين في الإسلام ،وكان بونافنتورا Bounaventure (1221- 1274) على رأس هذا التيار.

والثانية: أن يدافع عن أرسطو، ضد أتباع ابن رشد، وهم الواقفون بين النصارى موقف الفلاسفة في الإسلام. وكان سيجر البرابنتي(Siger de Brabant(1235.1282 حامل لواء هذا التيار.

لقد كان على الأكويني وهو الذي أنيطت به مهمة الدفاع عن المسيحية ضد أرسطو وشراّحه ،أن يستعين بالفلسفة ويستعمل منهجها للرد على ما يوجّه إلى العقيدة من انتقاد.كما أخذ على عاتقه مسؤولية تقديم الفلسفة الحقه للمسيحيين ،وكان بحكم وظيفته وقصده مسيحيا مخلصا أشد الإخلاص لعقيدته وكله رغبة لخدمتها، بل يرى أن الفلسفة وكل العلوم ما هي إلا خادمة للاّهوت. وفعلا لقد كانت الخدمة الجليلة التي قدمها لعقيدته ،هي تقديمه للمسيحيين فكرا لا يتعارض مع تلك العقيدة. وهل هذا ليس إلا توفيقا ؟.

انفصال الفلسفة عن الدين

لما كان مصدر كل من الفلسفة والدين متغايرين، فإن الأكويني فصل بينهما فصلا قاطعا وحاسما. فالفلسفة تعتمد على العقل الذي على نوره الطبيعي وحده تشاد، فتكون المعرفة العقلية معرفة واضحة ويقينية .و الفيلسوف يعتمد في براهينه على مبادئ العقل، ولا يقبل إلاّ بما هو مكتنه بطبيعته للنور الطبيعي، وما هو مبرهن بالإمكانات العقلية. ومن حيث الترتيب يبدأ في بحثه من الآثار أو المعلولات إلى العلة. وفي قضية وجود الله ينطلق من المخلوقات ثم يرتفع بالعقل إلى الخالق.

أما الدين أو اللاّهوت فيرتكز على الوحي ويستمد مبادئه من الإيمان التي هي من الإله مباشرة .ويهتم اللاهوت بمواضيع أكثر شرفا ورفعة، وحقائقه ذات مصدر مفارق للطبيعة، فهي تفوق طاقة العقل الإنساني، وغاياته غاية الغايات وهي السعادة الأبدية، ومن حيث الترتيب يبدأ اللاهوتي من تعريف العلة نفسها إلى معلولاتها، أي من الإله ثم يهبط إلى المخلوقات. وطريقه هو الطريق الأوفق لأن الإله يدرك الأشياء بإدراكه لذاته.

ومن هنا أكد الأكويني على استحالة تطبيق طريقة موحدة لدراسة الفلسفة والدين، بل أن هذا الأخير هو أعلى من الفلسفة ومن جميع العلوم. وهكذا فصل الأكويني بين الفلسفة والدين كما فعل ابن رشد. وعلى الرغم من هذا التمييز فإن الأكويني يؤكد على أمرين:

أنه لا تناقض بين الفلسفة والدين، وأنه يوجد مجال مشترك بينهما.

لا تناقض بين الفلسفة والدين

ليس هناك في الحقيقة تناقض بين الفلسفة والدين أو بين العقل والإيمان، لأن "النظر في الفلسفة كلها يكاد أن يكون جميعه موجها إلى معرفة الله" [5]. فهناك إذن توافق على المستوى النظري بين نتائج الإيمان ونتائج العقل، على الرغم من أن هذا التوافق، لا يبدو على المستوى العملي فالفلسفة والدين يشكلان قراءة واحدة كلية؛ فلا العقل إذا ما استعملناه بطريقة صحيحة، ولا الوحي الصادر عن الإله، يخدعاننا. والحقيقة أن توافق الحقيقة مع الحقيقة ضروري [6]. قال الأكويني: "يستحيل إثبات ما يضاد الحق بالبرهان" [7] وهذا القول يفضى إلى القول بوحدة الحقيقة، كما قال بها ابن رشد قبله، حينما أكد في كتابه " فصل المقال" على أن الحكمة هي الأخت الرضيعة للشريعة، وأن الحق لا يضاد الحق. وأكد بعده موسى ابن ميمون أن " العقل الفائض علينا هو الصلة بيننا وبين الله تعالى " [8].

وفى الفصل السابع الذى عنوانه :" في أن حقيقة الإيمان المسيحي لا تضادها حقيقة العقل " من كتاب " مجموعة الردود على الخوارج "، للأكوينى يذكر هذا الأخير فيه أسباب عدم تناقض الفلسفة والدين أو العقل والإيمان وهي:

أ- أن المبادئ الأولية التي يعتمد عليها العقل هي مبادئ فطرية، بديهية وواضحة بذاتها، لا تحتاج إلى إثبات. وبالتالي فهي صادقة. وكل المعارف التي تنتج عنها والمطابقة لها، هي أيضا معارف صادقة، ولا يمكن تصور كونها باطلة. أما الإيمان فهو صادق أيضا لكون الإله أكد صدقه بأوضح البيانات، وهو وحي الإله غير المكذوب، فلا يسوغ الظن بأنه باطل. يقول الأكويني: " من المحال أن الحقيقة التي يعلّمها الإيمان المسيحي تقع مضادة لتلك المبادئ، التي يعرفها العقل ببديهة الفطرة " [9].

ب- إن المتعلّم يتلقى من معلّمه نفس الحقائق والمعلومات التي للمعلم. إلاّ إذا علّمه المعلم تلبيسا وتمويها، وهذا من القبح ما لا يمكن أن يوصف به الإله. وبما أن معرفة المبادئ الأولية بالبداهة ،هي معرفة غرسها الإله في طبيعة البشر، فحكمة الإله إذن تتضمن هذه المبادئ أيضا. وعليه " فكل ما جاء مضادا لتلك المبادئ ،فإنما هو مضاد لحكمة الله فيستحيل أن يكون من عند الله. فإذا كل الحقائق التي نتيقنها بالإيمان لتلقّينا إياها بوحي إلهي، يستحيل أن تكون مضادة للمعرفة الطبيعية " [10].

ج- إن البينات المتضادة تؤدي إلى معارف متضادة .وهذه الأخيرة تمنع العقل من معرفة الحق. فلو أن " الله ألقى إلينا معارف متضادة ،لحصل عن ذلك أن عقلنا يتقيد عن معرفة الحق الأمر الذي يستحيل وقوعه من الله" [11].

د- لا يمكن أن توجد الآراء المتضادة معا في عقل واحد. فلو كان بين المعرفتين المنزّلة والطبيعية تضاد، للزم إما أن تكون كلتاهما معا في العقل ،وإما أن تبقى الواحدة وتزول الأخرى. فالأول محال إذ لا يجتمع الضدان معا في شيء واحد. والثاني

أيضا محال إذ أن المعرفة الطبيعية أي المسببة بالضرورة عن المبادئ الطبيعية لا تزول مع بقاء الطبيعة على حالها. فإذن المعرفتان لا تتضادان، بل تثبتان في العقل معا. أما الأولى فلحصولها ضرورة عن مبادئ الطبيعة، وأما الثانية فلثبوتها بالوحي. فالإله إذن" لا يلقّى الإنسان رأيا أو عقيدة إيمانية مضادة لمعرفتنا الطبيعية، ولهذا قال الرسول(في عدد 8 ف 10 من رسالة روم): إن الكلمة قريبة منك في فيك وفي قلبك يعني كلمة الإيمان التي نبشر نحن بها... ولكن لأن هذه الكلمة تفوق طوق العقل، قد حسبها البعض مضادة له، وهذا محال "[12].

وينتج عن هذا أن كل ما تقدمه البراهين إذا كان مناقضا للإيمان لا ينتج نتجا صحيحا عن المبادئ الأولية المغروسة في الطبيعة المعلومة بذاتها.

وينتج أيضا أنه إذا وجد في أقوال الفلاسفة ما يظهر مضادا للإيمان فليس ذلك من الفلسفة الصحيحة، بل هي سفسطة كما أن الصراعات التي دارت عبر التاريخ بين علماء اللاهوت والفلاسفة هي صراعات زائفة.

وينتج أخيرا أنه من المؤكد أن حقيقة الفلسفة تتناغم مع حقيقة الوحي ،بفضل سلسلة من العلاقات الحقيقية والمعقولة. لكن معرفتنا بهذا التناغم مشروطة بقدرتنا على فهم معطيات الإيمان[13].

فى حالة تعارض الفلسفة مع الدين

إذا كان ابن رشد قد لجأ إلى التأويل في حالة تناقض حقيقتي الإيمان والعقل، وبالتالي قراءة الدين في ضوء العقل وليس العكس، فإنه لم يكن بإمكان لاهوتي مسيحي مثل الأكويني أن يسلك نفس الطريق. لأن الوحي في رأيه على الرغم من عدم مخالفته لنواميس العقل، فهو لا يتقيد بحدود العقل ولا يرضى أن ينحط إلى ما هو في طاقة بعض الناس، بما هم ناس ولو من الأفذاذ. وهكذا رأى الأكويني كما رأى قبله ابن ميمون، أن الحقيقة الدينية أعلى من الحقيقية الفلسفية من حيث درجة اليقين.

لقد أخضع ابن رشد الدين للفلسفة، أما الأكويني فقد أخضع الفلسفة للدين .أي أن ابن رشد كان يوفّق بين الدين والفلسفة، بتأويل الآيات القرآنية تأويلا يؤدي إلى اتفاق معناها مع ما يقول به أرسطو. أما الأكويني فكان في توفيقه ،يؤمن بالفكرة اللاّهوتية ثم يأخذ في تفسير المذهب الأرسطي ،وتوجيهه إلى حيث يتفق مع النصوص المسيحية، فكان طبيعي بعد هذا أن تقوم الخصومة بينهما، وتختلف نتائج البحث الواحد عند كليهما وأن تنتصر الكنيسة للقديس الأكويني وتخاصم ابن رشد، وإن كان كلاهما شارحا لفلسفة أرسطو.

ويرجع هذا الاختلاف بين ابن رشد والأكويني إلى كون الأول فيلسوفا عقلانيا، أما الثاني فكان لاهوتيا متفلسفا. فلقد دافع ابن رشد عن الفلسفة إزاء المهاجمين عليها باسم الدين، فتساءل هل الشرع يوجب التفلسف؟. ودافع الأكويني عن اللاّهوت، إزاء المدافعين عن الفلسفة فتساءل في أول فصل من فصول المبحث الأول ،من الكتاب الأول، من الخلاصة اللاهوتية: "هل نشعر بحاجة ماسة إلى تعليم آخر غير التعليم الذي تقدمه لنا الفلسفة من أجل خلاص الإنسان؟ "، ليثبت بعد ذلك احتياج الإنسان إلى اللاّهوت المقدّس. وهكذا قام الأكويني بقلب النظرية التوفيقية الرشدية لصالح الدين المسيحي، وتأثر بها حتى وإن عالجها معالجة مغايرة، ولقد استفاد منها بفضل صديقه " ريمون مارتان " (Raymond Martin)الذي كان على دراية كبيرة بمؤلفات ابن رشد التي تناولت قضية التوفيق بين الفلسفة والدين.

يؤكد الأكوينى على أن وجود أي تناقض بين نتيجة فلسفية ما والدين، يشكل علامة على وجود خطأ. وبما أن الخطأ لا يمكن أن يوجد في الوحي الإلهي، فما علينا إلا أن نفتش عنه في الفلسفة. عندها نصل إلى إمكانيتين: إما أننا نبرهن على أن الفلسفة مخطئة، أو نبرهن أنها ظنت أن باستطاعتها ممارسة البرهان في مادة يستحيل فيها البرهان العقلاني، حيث يكون القرار عائدا فقط إلى الإيمان، في هذه الحالة لا يتدخل الوحي إلا ليشير إلى الخطأ ولكن ليس باسمه بل باسم العقل وحده[14].

هذا ونري أن تأكيد الأكوينى على الأخذ بما تقوله المسيحية -لأنها على حق دائما،وأنها فوق العقل - فى حالة تعارضها مع الفلسفة ،وتأويل الفلسفة وفقها إذا أمكن ،أو الفصل بينها وبين الفلسفة فصلا قاطعا ،راجع إلى أن المسيحية في حدّ ذاتها، تحمل في طياتها تناقضات كثيرة تأبى أن تنسجم مع العقل ،ويصعب بالتالي توفيقها مع الفلسفة. ومحاولة تأويلها هي نوع من الخيال أو الخرافة. ونقصد بها قضية التثليث، وبنوة المسيح الإله، وقتل المسيح الإله لا المسيح الرسول، فمعنى القضية الأولى فهو: أن الإله ثلاثة في الحقيقة، لا واحد. و المراد من كونه واحد أن كلا من الآلهة الثلاثة إله بتمام معنى الكلمة، وكأنه لا إله غيره مع أن معه إلهين اثنين وهذا شرك[15]. ولقد أخبر عنهم القرآن بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [16].

أما نبوة المسيح الإله فإن أغلب الأناجيل تذكر أن الرّب تعالى قال: " إنك أنت الابن الوحيد ومن كان وحيدا كيف يمثل بواحد من البشر"؟[17] ولقد أخبرنا القرآن عنهم أيضا بقوله: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [18].

أما فيما يخص قتل المسيح الإله، فنتساءل من يغفر للمذنبين بعد تضحية الإله بنفسه ؟ يلزم إذن أن يكون رجال الكنيسة وهم بشر مثل المذنبين هم العافين عن الذنوب وليس الإله، ثم الذين لم يغفر لهم من يعذبهم ومن يعيد الحياة إلى البشر ؟ بل إلى الإله نفسه ؟

ولعلّه لأجل هذا الاختلاف والتناقض بين العقل والنقل المسيحي أو بين الدين والفلسفة، سارع توما الأكويني لحسم

الخلاف بينهما بإقراره أن كلا منهما سبيل إلى الحقيقة، ، وذهب حرصه على التوفيق وحسم تناقض العقل مع الدين، إلى تأويل وتفسير بعض أفكار أرسطو في شروحه بما يتماشى والمسيحية.

المجال المشترك بين الفلسفة والدين

يوجد مجالا مشتركا بين الفلسفة والدين ألا وهو اللاهوت الطبيعي، وهو استعمال العقل الذي هو هبة طبيعية من الإله، في بعض مواضيع اللاهوت، وهو ما يقابله مبحث الألوهية في الفلسفة. فاللاّهوت الطبيعي ليس كل الفلسفة، بل جزءا منها أو هو تتويج لها، ولقد اهتم الأكويني بهذا الجزء وتوسع فيه وساعده في ذلك تعمّقه في الفلسفة الأرسطية. قال الأكويني: " إن المواضيع التي تعالجها العلوم الفلسفية من حيث تدرك بنور العقل، يبحث عنها علم اللاّهوت من حيث تدرك بالوحي. فيكون لدينا فيما يتعلق بالإله لاهوتان، أحدهما يعد قسما من الفلسفة، والآخر مختلفا عنه ليس فقط من حيث النوع بل حتى من حيث الجنس "[19].

حاول الأكويني أن يجعل للعقل شأنا في اللاهوت، وأن يجعل للفلسفة فيه دورا إيجابيا. لقد استعمل العقل كلما رأى إمكانية ذلك خاصة في المواضيع اللاهوتية التي يمكن الاستدلال عليها بالبراهين والبحث. والحقيقة أن الأجدر بنا أن نفهم لا أن نؤمن عندما يترك لنا الخيار. وكما قال جلسون عن الأكويني: " أنه لاهوتي، ولكنه يتسلح بإمكانيات العقل ويستعمل طاقاته ويسير على نوره: الشكل العام والغاية لاهوتيان، ولكن العرض والمنهج عقليان. فأشد كتبه منهجية، وأحكمها طرائقية، هي كتب لاهوتية المرمى، والمضمون. "[20].

حدود العقل

على الرغم من أهمية العقل في اللاهوت عند الأكويني إلا أنه:

أولا:ـ ليس السبيل الوحيد لمعرفة المعقولات الإلهية، فلو كان كذلك لترتب عنه حصول هذه المعرفة إلا في القليل من الناس، ولا يحصّلها هذا القليل إلا بعد مدة طويلة للأسباب التالية:

أـ اهتمام الكثير من الناس بأمور الحياة اليومية ومشاكلها، يمنعهم من التفرغ للمباحث النظرية التي تتطلب وقتا طويلا وجهدا ذهنيا كبيرا.

ب ـ بالإضافة إلى الوقت الطويل الذي يستغرقه ما يمكن للعقل أن يستطلعه عن الإله، فإن هذا لا يتطلب فقط الفطنة ،وإنما يتطلب الممارسة والترويض الطويلين، ويتطلب سبق معرفة بأمور كثيرة ،ولهذا فإن ما وراء الطبيعة التى موضوعها الإلهيات جعل بين أقسام الفلسفة آخر ما يجب تعلمه[21].

كما يتطلب أيضا اتصاف النفس بالفضائل الحسنة، وخاصة فضيلة العفة التي تهيئ الإنسان كثيرا إلى كمال فعل العقل.

جـ ضعف الإنسان ونقص عقله وجهله بقوة القياس البرهاني، تجعل أحكامه غير يقينية،بل يخالطها شيئ من الشّك. ومن هنا على الناس أن يتلقوا حقيقة الأمور لإلهية عن طريق الإيمان بثابت اليقين. لأنه لولا لطف الإله ،لبقيت البشرية فى أعماق ظلمات الجهل .إذ تفضّل الإله لفائدة البشر أن يوقنوا الأشياء بيقين الإيمان حينما لا يتمكن العقل، فيتمكن جميع الناس من الاشتراك في معرفة الله معرفة يقينية[22].

ثانيا: ـ إنه قاصر ومحدود، بحيث لا يمكنه أن يتخطى إلى حقائق تفوق طبيعة البشر، وفي المسيحية قضايا هي من قبيل الأسرار غير قابلة للبرهان لأنها فوق مستوى الإثبات العقلي الإنساني وذلك مثل قضية التثليث، وميدان هذه الحقائق هو اللاّهوت الموحى أو اللاهوت المقدس ،الذي مهمته توضيح ما هو غامض فيها وتصديق هذه الحقائق كماجاءت.ويستحسن تصديقها لأننا أن نعتقد أن الإله قد أوحاها، أحسن من أن تقدم فيها أدلة ضعيفة تزيد الضالين ضلالا [23].

فهل معنى هذا أنه يجب الاستغناء عن البحث في أمور هي فوق طاقة الإنسان بحكم أن العقل ناقص؟ يجيب الأكويني بأن البحث في هذه الأمور لكونها كاملة سامية ،يستحيل على الإنسان الإحاطة بها، ولكنها تكسبه كثيرا من الكمال إذا تأمل فيها قليلا. كما يجد الإنسان في هذا التأمل كثيرا من اللّذة والعذوبة، بشرط أن لا يدّعى الإنسان أنه أحاط بالحق بالبرهان. يقول الإكويني: " إن معرفة الأشياء السامية مهما كانت ناقصة فإنها تولى النفس كمالا عظيما " [24].

نستنتج إذن أنه إذا كانت الفلسفة واحدة بالنوع والمنهج، فإن اللاّهوت نوعان ومنهجه منهجان: لاهوت مقدس أو كما يسميه أيضا الأكويني حق إيماني، ولاهوت طبيعي أو حق طبيعي، والمنهجان هما العقل والإيمان، وهذه الاثنينية بالنسبة للحق هي من جهة الإنسان فقط، وليست من جهة الإله لأن الحق عند الله واحد بسيط.

ثالثا :ـ أن العقل أقل درجة من الإيمان ،و بالتالي فإن اللاّهوت أعلى العلوم وأعلى من الفلسفة. وما الفلسفة إلا خادمة للاّهوت و دورها فيه دور ثانوي و ليس ضروريا، بل هي أداة توضيحية وإضهارية فقط، بدليل أن العلم المقدس لا يستمد مبادئه من علم آخر بل من الإله مباشرة عن طريق الوحي. [25] ولأن معرفتنا لحقيقة الإيمان مقرونة باليقين وليس ايقاننا بها مبنيا على وضوح الموضوع وضوحا بالذات أو وضوحا بالبرهان، أي أن العقل لا يدرك ما بين موضوعها ومحمولها من الاتحاد الذاتي، أو لا يستنتج الحقائق استنتاجا ضروريا من المبادئ المعروفة بذاتها، وذلك لرفع مستوى حقائق الإيمان عن إدراك العقل والفهم البشري، بل إن يقين حقائق الإيمان مبني على صدق الله الموحى.

إن الناظر في التوماوية يشعر أن الأكويني يفتح آفاقا عريضة للعقل، إذ أراد أن يعطي له الحرية وأن يجعله يعبّر عن

مقتضياته بكل صلابة، ولكن سرعان ما يتبدد هذا الشعور عندما يكتشف أن اتجاه الأكويني وتقدّمه بفضل معطيات العقل هو تقدم محدد مسبقا من طرف العقيدة. فالعقيدة هي التي حددت له الموضوعات التي يتناولها والموضوعات التي يتجنبها بل حددت له حتى الحقائق التي عليه أن يصل إليها.[26] إن للاّهوت تأثيرا أساسيا عليه، إذ يشكل المنهج العام لأفكار الأكويني الفلسفية. وما توفيقه بين الفلسفة والدين إلاّ لإثبات الحق إلى جانب الدين. وهذه المهمة كانت تتطلب تحوير أرسطو لجعله يصطبغ بصبغة مسيحية. غير أن الأكويني في رأي (جلسون) لم يقم بذلك ولم يدخل تعديلات على أرسطو بما يتيح التوفيق بينه وبين المسيحية، إنما ما قام به هو إعادة بناء اللاهوت بناءا جديدا على قواعد قدمتها فلسفة جديدة ،هي الفلسفة الأرسطية بعد أن رفض علم اللاهوت الأوغسطيني السائد حينذاك والقائم على الأفلاطونية.

أراد الأكويني جعل العقول تعتاد التفكير وفق أرسطو بدلا من التفكير وفق أفلاطون. كما كان الأكويني يعدّل ويحوّر الكثير من أفكاره لتتفق وفكر أرسطو كلما رأى أن هذا الفكر الأرسطي مصيب. وكان من الطبيعي أن تثير هذه المحاولات أعنف معارضة من قبل أنصار الأوغسطينية المسيطرين على الكنيسة، بل ارتاب فيه الأوغسطينيون وهاجموه. وتشكك المؤتمر العام لطائفة الدومنيكان المنعقد في 1282 في إيمانه، وقد شمل تحريم عام 1277 قضاياه إلى جانب القضايا الرشدية والأرسطية [27].

ويرى التوماويون أن الأكويني كان عقلانيا جدا، أي كان فيلسوفا لاهوتيا.وأن قيمة فلسفته تتجلى بكونها مجهودا ضخما لتحقيق الصواب والأمانة الفكرية وما اتفاقها واللاّهوت إلا نتيجة ضرورية لمقتضيات العقل ذاته.

في حين أننا نرى أن الأكويني على الرغم من كون بعض جوانب فكره عقلية فلسفية، إلاّ أن صفة اللاّهوتي غلبت عليه. ففي كل مرة يضع للعقل حدود الفطرة، فلا يأخذ برأي الفلسفة وخاصة برأي أرسطو، ولا يأخذ بنتائج البحث العقلي في ميادين قد فصل فيها اللاّهوت المسيحي مثل خلق العالم، بل لم يجرؤ على استعمال الإثبات العقلي في قضايا مثل التثليث والتجسّد، بحجة أنها فوق طاقة الإنسان. فلو كان فعلا فيلسوفا عقلانيا لآمن بالعقل إيمانا مطلقا ولكانت آراؤه غير هذه. لقد كان توما الأكويني كما قال عنه Copleston " إذا ما وجد أن ما جاء عند أرسطو مختلف مع الوحي، يتخلى عنه أو يؤكد أن التأويل الرشدي ليس صحيحا أو على الأقل ليس ضروريا. لقد أراد القديس توماس أن يخلّص أرسطو من شباك ابن رشد، وأن يثبت أن فلسفة أرسطو لا تحتم بالضرورة إنكار العناية الإلهية والخلود الإنساني ،ولقد نجح في ذلك وإن اضطر أن يتأوّل أرسطو تأويلا غير صحيح " [28].

وبالفعل إذا ما وجد الأكويني تناقضا بين أرسطو واللاّهوت، فإنه يضطر إلى التحايل في بعض الأحيان، فيقول إن أرسطو لم يقل بهذا فعلا وإنما تأوله ابن رشد بهذا المعنى، أو أنه قيل في مناسبة غير المناسبة التي نتحدث عنها، إلى غير ذلك من التحايلات. وكل هذا بهدف تأويل أرسطو تأويلا يتماشى واللاّهوت المسيحي، حتى وإن تطلب ذلك تغييرا في فكر أرسطو الأصلي.

هكذا إذن يفصل الأكويني بين الفلسفة و الدين أو اللاّهوت، ويحاول أن يجد مساحة مشتركة بينهما تمكّنه من التوفيق بينهما، ميالا إلى اللاهوت ومدافعا عنه بطرق عقلية كلما أمكن ذلك. ومن أهم القضايا التى اهتم بها فى هذا الصدد قضية الألوهية .إذ يرى أنه يمكن معرفة وجود الإله ووحدانيته باستعمال العقل الطبيعي. بينما لا يمكن معرفة جوهر الإله أو كنهه. فكما قال الفارابي(ت339هـ) في هذا الصدد:" لكن أذهاننا وقوى عقولنا ممتنعة، لضعفها وبعدها عن جوهره، من أن نتصوّره على التمام وعلى ما هو عليه من كمال الوجود"[29].

وأسباب عدم معرفة ذات الله في نظر الأكويني هي :

1 - كون المعرفة العقلية تنشأ عن الحس، وعليه فكل ما لا يقع تحت الحس فلا يدركه عقل الإنسان إلاّ من حيث يستخلص معرفته عن الحواس.

2 - المعلومات التي تقدمها الحواس لا تمكّن عقل الإنسان من إدراك الإله في ذاته، لأنها معلومات أبعد من أن تساوي قوة العلة(ولكن تمكّنه من معرفة أنه موجود).

3 - لأن قوة تعقّل الإنسان لا تكافئ جوهر الإله حتى تعقله، فحتى الملاك الذي هو أشرف من النفس الإنسانية التي يترقى فيها الإنسان إلى معرفة الإله، لا يمكنه ذلك. فالوحيد الذي قوة تعقّله تكافئ جوهر الإله هو الإله نفسه الذي يدرك نفسه بنفسه، ويدرك جميع ما هو معقول فيه.

4 - باعتبار الإنسان كائنا ناقصا، فإنه يجهل كثيرا من خواص المحسوسات ومن هنا لا يعرف حقيقة الأشياء الحسية حق المعرفة، فما بالك إذا تعلق الأمر بالمعقولات وبالأخص ذلك الجوهر المتعالي والسامي، فلن يكون عقل الإنسان إلاّ أشد عجزا عن إدراك حقيقته بالذات. فلقد قال أيوب في الكتاب المقدس(في عدد 26، ف 32) " إنّ الله عظيم فوق ما نعلم".[30]

نستنتج إذن أن معرفة ذات الإله أو جوهره ،أمر لا يمكن للإنسان إدراكه لأنه فوق طاقة العقل الإنساني، لأجل ذلك لا يمكن وصف ذاته إلاّ بأن نسلب أو ننفي عنها كل ما يخالف ماهيتها. ولكن ما لا يمكن إدراكه بالعقل ليس معناه أنه ليس حقا، بل هو حق، فمثلا إذا لم يدرك الأحمق شديد البلاهة ما قاله الفيلسوف، فلا يمكن وصف قول الفيلسوف بالكذب فيكون هذا الفعل نفسه حماقة، فالإنسان الذي يجرؤ على تكذيب ما ينزله الإله بواسطة الملائكة لمجرد أن ذلك المنزّل ممتنع تحصيله بالعقل فيكون في أبلغ من تلك الدرجة من الحماقة والجهل [31].

يبقى إذن أن المعلومات التي تقدمها الحواس والعقل إذا كانت لا توصل إلى معرفة حقيقة الإله، فإنها تمكّن الإنسان من معرفة بأن الإله موجود وما شاكل من المعلومات التي لا بد من نسبتها إلى المبدأ الأول.

نستنتج إذن أنه نظرا لقصور ونقص الإنسان من جميع نواحيه، فإنه لا يطمح ولا يطمع في أن يعرف أو يدرك ماهية الإله ،لأنه ليس بوسعه ذلك أبدا كما ذكرنا، وإنما يطمئن ويستيقن بأنه موجود بالبحث في وجوده بالوسائل التي منحته إياها طبيعته. وأيقن الوسائل باعتباره حيوانا مفكرا هو الاستدلال أو قياس الغائب على الشاهد. مع العلم مسبقا بأن اختلاف العلّة ينتج عنه تصوّر للإله مغاير تماما لتصوّر عالم الشهادة أو عالم الحسّ.

خاتمة

إن الأكويني لكي يحقق هذا " التطابق " الذي تحدث عنه التوماويون والذي نسميه توفيقا، لإرضاء عقيدته دائما ،لم يكتف بنقل آراء ابن رشد فقط ،بل كان ينقل أفكارا من كل عمل يخدم ذلك المقصود، لأجل ذلك جاءت فلسفته فلسفة انتقائية، فهو لا يأخذ من فلاسفة الإسلام فقط بل حتى من علماء الكلام الذين أطلع على آرائهم من خلال كتب الغزالي وابن رشد وابن ميمون، ومن هنا كانت فلسفته فلسفة قديس ولهوته لاهوت فيلسوف.

فأرسطيته ليست نقية تماما، بل أرسطية أدخل عليها ببراعة مفاهيم مسيحية وأفكارا إسلامية صيغت صياغة مبتكرة.فكل العناصر الفلسفية مندمجة في مركّب لاهوتي آخره مسيطر على العناصر التي يرأسها[32].

الهوامش

1 -زينب محمود الخضيري، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى. دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة 1993. ص51-53

2- زينب محمود الخضيري، ابن سينا وتلاميذه اللاتين. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. ص84

* أستاذ توما الأكويني (1267- 1277)

3- زينب محمود الخضيري، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، ص71.

4- ميخائيل ضوميط. توما الأكويني،(قادة الفكر) المطبعة الكاثوليكية. بيروت ص25.

5- الأكويني توما ، مجموعة الردود على الخوارج. ترجمة وتعليق: المطران نعمة الله أبي كرم المروني. مطبعة اللبنانيين. لبنان. 1931 .ك1. ف1 ص14

6-Gilson (E). la Philosophie au Moyen Age . Petite bibliothèque Payot. Paris P.528

7-Saint Thomas. Somme Théologique. Dieu. Traduction:A.D.Sertillenges.Op.Paris. Tournai. Rome.1947. 4ème Edition Tome I .question I . Article8. p49

8- ابن ميمون دلالة الحائرين. ج3.فصل52. عن إسرائيل ولفنسون. موسى ابن ميمون حياته ومصنفاته.ص66.

9- الأكويني، مج الردود على الخوارج. ك1. ف7.ص24.

10- الأكويني، مج الردود على الخوارج. ك1. ف7.ص25

11- الأكويني، مج الردود على الخوارج. ك1. ف7.ص26

12- الأكويني. مج. الردود على الخوارج. ك1.ف 7. ص 62- 72

13-Gilson (E) La Philosophie au Moyen Age. P528

14-Ibid. P 529

15- مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، وعباده المرسلين. دار إحياء الكتب العربية 1950. ج II .ص 45.

16- سورة المائدة، الآية 73.

17- الشهرستاني، الملل والنحل. وضع مقدمته السيد: محمد سيد كيلاني. سنة1961 بالقاهرة ص221

18- سورة مريم، الآية 19 -39

19-Saint Thomas, S.T.Dieu.TI: Q: 1.A.2. P 26

20- Gilson (E) ,Le thomisme.p15 نقلا عن علي زيغور، الفلسفة في أوروبا الوسيطة وعصري النهضة والإصلاح. المكتب العالمي للطباعة والنشر والتوزيع 1998.ص337

21- نفس رأي ابن سينا في كتاب الإلهيات.

22- الأكويني، مج الردود على الخوارج. ك1ف4 .ص.13 .16.

23- أنظر نفس المصدر السابق. ك1. ف 9. ص31

24- الأكويني، مج الردود على الخوارج. ك1. ف5. ص20.

25-Saint Thomas. S.T. Dieu.T1.Q1, A5.P37

26- زينب محمود الخضيري، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى.ص 165.

27-Voir : Gilson(E), Le Thomisme. Introduction à la Philosophie de Saint Thomas d'Aquin . Librairie, J.Vrain. Paris. 2eme Edition. 1927. P.28 – 42

28- Copleston frederic, Histoire de la Philosophie. Moyen age. Casterman.1964. P448

29- الفارابي، كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، تقديم وتعليق: آلبير نصرى نادر. دار المشرق. بيروت. الط4. 1973. ص51

30- الأكويني، مج. الردود. ك1.ف3. ص.12- 13

31- مج. الردود. ك1. ف3. ص12

32-Gilson(E), Le Thomisme ,p91